للاب توتل اليسوعي

بين الارثوذكس والكاثوليك

عن المجلة الافرنسية للآباء البندكتيين (*Irénikon*) ١٩٢٩ ، ٢١ . . .) بتصرف:

ما الذي ادّى بكنيسة القسطنطينية لتنفصل عن الكنيسة الرومانية ؟ في البدء لم تكن دواعي الانتقال ناتجة عن اختلاف في التعليم او في قانون الايمان. وقضية انبثاق الروح القدس من الآب والابن لم يجعلها فوطيوس (†٨٩١) وميخائيل كارولاوس († ١٠٩٥) مادة للبحث والجدال بين الشرق والغرب. انما كانت مادّة الخلاف طقسية محضة. وما زالت لائحتها مدوّنة في رسالة ميخائيل كارولاوس التي وجهها الى حنا اسقف تراني في ايطالية ، وهي موقعة باسم كارولاوس ، واسم لاون ميتروبوليت بلغارية ، يناشدان بها الاسقف اللاتيني المذكور ان يتدخل بين الشرق وبين اساقفة وكهنة ورهبان الغرب ، واخصهم البابا ، ويطلبان منه بالحاح ان يسعى في رفع ما ستوه في مذهبهم: «عثار الشك في الكنيسة اللاتينية»

وما هي تلك الشكوك التي أنكرت على الكنيسة الغربية ؟ هل هي الموادّ التي يتخذ منها اعداء الكنيسة اعتراضاتهم على البابوية ، تلك الاعتراضات التي صار لها حجةً هذا او ذاك من الرجال الذين جلسوا على الكرسي البطرسي عن غير اهبة واستحقاق ، فان اخطأوا فقد اخطأوا ، لا بتعليمهم وتدبيرهم ، ولكن بسلوكهم الشخصي مما تعود تبعته عليهم من غير ان تمسّ الكنيسة ،

عروسة المسيح بشائبة ؟ ان كارولاوس انكر على الكنيسة اللاتينية عادات طقسية محضة منها : «انهم يحرمون المؤمنين من غير الاكليروس من الشرب من كأس الكاهن في ذبيحة القداس ، ويستعملون الخبز الفطير في الذبيحة ، ويصومون يوم السبت ، ويجزفون في الصلوات البيعية ، ايام الصيام ، لفظة هلوليا ... الخ »

ليس الموقف موقف جدال في هذه الساعة ، وليس من شأننا ان نبحث عن الدواعي الحقيقية التي انحدرت من تلك الحجج سبيلاً الى احداث اعظم انقسام حلّ بالمسيحيّة الى ذلك العهد . وليست مهمتنا الكشف عن نيات فوطيوس او كارولاوس او غيرهم ممن اصمتهم مصالح ومفاخر بيزنطية اكثر مما اهمتهم واجبات اتقاء شرور الانقسام وبلاياها على المسيحية جمعاء . انما غرضنا في هذا المقال تبيان حقيقة قد جهلها الكثيرون وهي ان ما نسميه : «خلافاً طقسياً محضاً» كان له في العصر الحادي عشر شأن اعظم من ان تتعاطى امره بالسرعة والمجازفة .

والشاهد على ذلك ان البابا لاون الحادي عشر ، لما اطلع على فحوى رسالة كارولاوس الى يوحنا اسقف تراني ، امر الكردينال هومبر بالردّ عليها . والجواب محفوظ الى يومنا في مجموعة مين الكبرى (Migne, *P. L. 143, col 931-984*) . نظر الكردينال بعين الاعتبار الى شكاوى بطريرك القسطنطينية ، وردّ عليها مبيناً حقوق الكنيسة اللاتينية في ممارسة الفوائد التي أوخذت بها عن غير حكمة وصواب

وقد عالج القديس بطرس داميان (١٠٠٦ — ١٠٧٠) ، احد معاصري كارولاوس العظام ، المشاكل المطروحة آنذاك بين الشرق والغرب ، واتخذ من ثمّ فرصة للتوسع في تفسير رموز بعض الفوائد الطقسية المذكورة ، مما يدل على عظم شأنها ليس فقط في نظر الشرق ولكن في نظر الغرب ايضاً ، فقال في الصوم السبتي انه تذكار لليوم السابق قيامة المسيح ، وان حياتنا يجب ان تكون سبتاً دائماً في رجاء القيامة السعيدة . وتناول الكلام على واجب الوقوف في الكنائس ، احتراماً وقال « مفروض ابداً ، ليس فقط على الاكليروس ولكن على العلمانيين ايضاً من الجنسين ، الا يجلسوا ولا يتكئوا في الكنائس وقت

الطقوس الا وقت القراءات طبقاً للعادة التي أدخلت ، او وقت المرض . » على اننا نعلم ان نظام الكنيسة الحالي قد ادخل بعض التغيرات على تلك العادات فوضعت المقاعد والمساجد والكراسي في الكنائس شرقاً وغرباً . ولكن لم تدخل تلك العوائد عنوة في جميع الكنائس ، ولعلها اصطدمت بمقاومة عنيفة أدّت الى شقاق عظيم . فانها في العصر السابع عشر انتجت عواقب وخيمة في الكنيسة الروسية ، وقد قام البطريرك نيقون سنة ١٦٥٣ في موسكو مبتغياً احداث تغيير في الطقوس لا يكاد يستحق الذكر . فهاج الشعب وانكر على البطريرك « اختراق القدسيات » وانشق عن الكنيسة الروسية الرسمية محدثاً فيها بدعةً جديدة دعيت (*Staroobriadtsy*) او اصحاب الايمان القديم . هذا مما يدل على واجب مراعاة حقوق العوائد في الطقوس توقياً للشرور الناتجة في الغالب عن الجهل والتعصب القومي ، وهذا ما يفسر لنا الاسباب التي من اجلها لا تزال رومة ساهرةً كل السهر على حفظ الطقوس مصانة في بيعة الله .

الامن في الحجاز

نشرت مجلة «الاصلاح» الدينية المكية مقالاً (ربيع الثاني ١٣٦٨ ، يناير ١٩٢٩ ، ص ١٩٥) عن الجنايات في مصر ، وكثرتها ، وشناعتها ، فعللتها بتراخي الحكومة عن معاقبة المجرمين الشريعة المهيبة ، وقابلت بين مصر وسائر البلاد الشرقية وبين الحجاز ، فانكرت على الاولى تساهلها بتطبيق الشريعة ، وذكرت ان العدالة نشرت لواءها على الحجاز والامن خيم على رماله ، لان سيف حكومتها مريع الانتقام للشريعة . قالت :

واعظم شاهد على صدق ذلك حالة بادية الحجاز اليوم وما هي عليه من الامن الشامل الذي يمكن اي كائن من ان يحمل ما يشاء من ذهب ومتاع ويروح به في اي ناحية من نواحي الجزيرة العربية لا يخاف الا الله والذئب مصداق قوله (صلعم) « وستذهب الظعينة من المدينة الى صنعاء لا تخشى على نفسها الا الله والذئب » . . . وما ذاك الا لما يرون من تطبيق الحدود الاسلامية على وجهها الصحيح ، وما اعظم ذلك المنظر الرهيب اذ علم اهل مكة أنه بعد صلاة الجمعة سيقتل فلان الذي قتل فلانة وتقطع يد فلان الذي ثبتت عليه السرقة بالاعتراف فتجمعت الجموع الحافلة أمام دار الحكومة عقب صلاة

الجمعة وشاهدوا كيف يشهر الجلّاد سيفه ويضرب به تلك الرأس الفاسدة(كذا!!) ضربة واحدة تطيح بها فتطهر الارض من شرها وتذهب الى سريع الحساب ، ويجيء القصاب فيقطع بسكينه يد ذلك السارق المفسدة ويعمل فيها ما يعمل في لحم الشاة ثم يفصلها ويرفعها ليراها الناس كذلك معلقة امام باب الحكومة طول اليوم ، تلك والله هي الدروس التي لو طبقت مرة في مصر او غيرها ، لما احتاجت الحكومة كل عام الى بناء سجون حديثة وانشاء محاكم جديدة وارهاق الميزانية بمقدرات جديدة لو انها انفقت على انشاء معاهد علمية وصناعية وغيرها لكان اجدى بالنفع الكثير على الامة.

وانى أجزم الجزم كله لو ان حادثة من الزنى طبقت فيها عقوبة الشرع بالرجم او الجلد مثلًا في ميدان من احد الميادين العامة على مرأى من الناس لكان ذلك اوقع واردع واقطع لمادة الفساد . ولا وربك ما المجرم المصري باقسى قلباً ولا اشد فتكاً من مجرم بادية الحجاز مثلًا ، ولكن هو القانون الصارم والعقوبة القوية قلمت اظفار الشر في الجزيرة ورفعت لواء الامن ، وخلت السجون من كثرة الضيوف ، وهو القانون الهين اللين والعقوبة الظريفة في مصر وغيرها حددت من مخالب الشر والفساد حتى عم الخوف وكثرت حوادث القتل وضاعت حرمة الاعراض وذهبت الشرف تحت اقدام الفاسقين ، وامتلأت السجون بالضيوف المكرمين المزنين.

قسطينة العاصمة العلمية

عن «الشهاب» المجلة الاسلامية الجزائرية ، باختصار (جمادى الثانية ١٣٥٨ نوفمبر ١٩٣٩ ص : ٢٦)

« قسطينة ظلت محافظة في غالب ادوارها على مجدها العلمي العتيق . فجمهرة العلماء يحملون فيها شعلة الثقافة الاسلامية والتلاميذ الناشئون يثابرون على تلقي تلك الثقافة وغشاة المساجد يجدون فيها كل آن دروساً عالية في التفسير والفقه الاسلامي بطريق التحليل والتمحيص والتطبيق ؛ سيما مسجد «الجامع الاخضر» الذي هو مثابة المتعطشين ؛ حيث ان الذي يلقي تلك

الدروس هو نفس الاستاذ منشئ هذه المجلة (عبد الحميد بن باديس) ؛ ومسجد سيدي قموش الذي يلقي فيه هذا الاستاذ ايضاً الدروس العربية لخصوص طائفة من تلاميذ الطبقة العالية. والنشء هواة التعليم النظامي الحديث يعثرون على ضالتهم في الكتاتيب العربية المؤسسة لذلك الغرض النبيل الذي يوفر على التلاميذ وقتاً فسيحاً وخاصة الكتاب الذي اسس بدار الجمعية الخيرية الموقرة لمزاولة المبادي العربية والدينية بالاساليب الحديثة تحت اشراف هذا الاستاذ ايضاً ؛ ومن اساتذته حضرة كاتب الجمعية السيد محمد النجار والشيخ الشريف الصايغي.

ومنها ان اول ما يتبادر الى ذهن المستكشف حالة البلاد هو انه يرى نفسه في وسط عربي اسلامي وبين قوم عرب اقحاح ؛ سواء في الزي ، او في التقاليد او في الثقافة ، او في التفكير. ومما يثير اعجاب الزائر لهذه المدينة الجميلة تلك الميزة التي تمتاز بها لا عن بلدان الجزائر فحسب ؛ بل عن الشرق عموماً وهي ان الطبقة المفكرة لا تتخاطب — ولو في المجالس العادية — الا بالفاظ عربية فصيحة مع الحرص على النطق بالكلمات معربة ، ولعل طول مرانهم على ذلك هو مما غرس فيهم ملكة التعبير عن مقاصدهم على ذلك النحو بدون كلفة

ومنها ان الطبقات ممتازة ، طبقة العلماء والادباء ، وطبقة المزاولين للمهن الوطنية ، وطبقة التجار ؛ لكن ليس امتياز بعضها عن بعض بالمعنى الارسطوقراطي المعروف ؛ وانما من الآداب المتعارفة لديهم ان لا تعدو كل طبقة حدود وظيفتها مع احترام غيرها لوظيفتها ؛ سيما طبقة العلماء والادباء والمفكرين اكثر تمتعاً بهذه الميزة ، وملحوظة من الجميع بعين ملؤها الاجلال.